النشاط الثقافي في الوطن العربي

لبنان

حلقة الكتاب العربي

*

انعقدت في سوق الغرب بلبنان بين ٤ و ٨ ايلول الماضي حلقة لدراسة وسائل تيسير تداول الكتاب العربي ونشره بدعوة من الامانة العامة لجامعة الدول العربية ، واصدرت التوصيات التالية :

ان حلقة دراسة وسائل تيسير تدوال الكتاب العربي ونشره ، التي اجتمعت بالجمهورية اللبنانية بناء على دعوة الامانة العامة لجامعة الدول العربية ، في المدة من ٤ الى ٨ ايلول « سبتمبر » ١٩٦١ ، والتي اشترك فيها ممثلون للحكومات العربية وللناشرين العرب في كل من المملكة الاردنية الهاشمية وجمهورية تونس وجمهورية السودان والمملكة العربية السعودية والجمهورية العربية المتحدة والجمهورية اللبنانية والمملكة الليبية والمملكة المتوكلية اليمنية والمملكة المغربية وفلسطين .

تقرر بعد تبادل الاراء في اجتماعاتها العامة ، وفي اجتماعات لجانها المختلفة ، ان العوائق التي تحول دون انتشار الكتاب العربي وتيسير اسباب تداوله ، ترجع الى عدة عوامل رئيسية هي :

أ ـ عدم وجود رابطة وثيقة بين الناشرين العرب تجمعهم على خطة وهدف مشترك ، تتجه اليه جهودهم ويهدف اليه نشاطهم العام .

ب ـ نقص الدراسات العلمية والاحصائية عن موضوع الكتاب العربي وانواعه واتجاهاته ومجالاته العلمية والاقتصادية ، وخاماته ووسائل انتاجه وتسويقه ونشره .

ج ـ ضعف وسائل التعريف به والاعلان عنه ، وقلة اقبال المتعلمين العرب على القراءة نتيجة لذلك ولغيره .

د ـ الصعوبات الاقتصادية التي تعترض سبيله من قوانين تبادل النقد ووسائل النقل وقوانين التصدير والاستيراد والضرائب الجمركية والبلدية وغيرها .

وفي ضوء هذه الحقائق مجتمعة اقرت الحلقة التوصيات الاتية :

اولا ـ فيما يختص بالرابطة بين الناشرين العرب توصي الحلقة بما يأتي :

١ ـ انشاء اتحاد عام للناشرين العرب يسعى ويساعد على تكوين اتحادات محلية في البلاد العربية يسجل المشتغلين بصناعة الكتاب في كل منها ، وترتبط هذه الاتحادات المحلية به ارتباط المصلحة المشتركة والواجب المشترك .

ب ـ تأليف لجنة تأسيسية مؤقتة للاتحاد العام ، يكون مقرها مدينة القاهرة ، وتضطلع باتخاذ جميع الاجراءات اللازمة لقيام اتحاد للناشرين العرب ، يضم جميعها المشتغلين في عمليات النشر والتوزيع في جميع البلاد العربية ، على ان تكون هذه اللجنة ممثلة بقدر المستطاع للبلاد العربية التي تهتم بانتاج الكتاب ونشره . وترشح الحلقة السادة الاتية اسماؤهم ليكونوا لجنة تأسيسية مؤقتة لوضع مشروع الاتحاد ودستوره ونظامه الداخلي ، مع الاتصال بالمشتغلين بصناعة الكتاب العربي في البلاد الاخرى :

من الجمهورية العربية المتحدة :

السيد حسن محمد ، السيد محمود عبد المنعم مراد ، السيد محمد الزغبي ، السيد محمد شفيق حمدان ، السيد محمد المعلم ، السيد عادل الفضبان ، السيد نجيب الخانجي .

من الجمهورية اللبنانية :

السيد بهيج عثمان ، السيد يحيى الخليل ، السيد خليل طعمه ، الدكتور سهيل ادريس ، السيد حسين عاصي ، السيد محمود صفي الدين

من الجمهورية العراقية : السيد قاسم محمد الرجب .

من الجمهورية التونسية : السيد فريد السوداني .

من المملكة المغربية : السيد عبد الحي ابو طالب .

ويكون السيد محمد المعلم امينا مؤقتا لهذه اللجنة .

ج ـ يكون الغرض من الاتحاد ما يأتي :

١ ـ العمل على رفع مستوى مهنة النشر وتدعيم رسالتها باعتبارها عملا قوميا .

٢ ـ وضع دستور يلتزم به الناشرون في عملهم ويحدد واجباتهم وحقوقهم ويرعى اداب المهنة .

٣ ـ توثيق العلاقات بين الناشرين العرب بعضهم ببعض وبينهم وبين الهيئات العربية التي لها صلة بالكتاب العربي .

٤ ـ ايجاد مجالات للتعاون والعمل المشترك الذي ينهض بعمليات النشر ويعود عليها بالخير ويخلق الفرص والامكانيات التي تؤدي الى ترويج الكتاب العربي وتيسير تداوله عبر الاقطار العربية .

٥ ـ العمل على حل المشاكل وتذليل الصعاب التي تعترض تداول الكتاب العربي بين الاقطار العربية .

٦ ـ العمل على توسيع نطاق الانتفاع بالكتاب العربي في جميع المستويات .

٧ ـ العمل على حل مشاكل النقد وخفض تكاليف البريد والنقل والرسوم الجمركية بانواعها المختلفة وما الى ذلك .

٨ ـ العمل على تنظيم وسائل التعريف والاعلام واقامة المعارض المحية والدولية .

٩ ـ اصدار نشرة تعريف دورية بالمطبوعات العربية وتيسير تبادلها .

١٠ ـ تيسير اسباب الائتمان النقدي بين اعضاء الاتحاد في حدود القوانين .

١١ ـ وضع القواعد العامة المنظمة لعمليات النشر والتوزيع والتي ترتفع بمستواها وتحول دون المنافسات والمعاملات غير المشروعة .

١٢ ـ العمل على ترقية صناعة الكتاب وتنمية الخبرة الفنية للمشتغلين بصناعة الكتاب ونشره وتسويقه .

١٣ ـ وضع القواعد العادلة للتعامل بين المؤلف والناشر والموزع .

١٤ ـ حماية مهنة النشر من الدخلاء عليها .

١٥ ـ العمل على توطيد الصلات بين الناشرين العرب والناشرين في الدول الاخرى وكذا بينهم وبين المنظمات الدولية التي يتصل نشاطها بنشاطهم .

١٦ ـ التدخل لتسوية ما قد يقوم من منازعات بين الناشرين بعضهم ببعض او بينهم وبين سواهم من المتعاملين معهم .

١٧ ـ العمل على حفظ حقوق الناشرين ورعاية مصالحهم المادية والادبية وتنمية روح الزمالة والتعاون والتكافل الاجتماعي بينهم .

ثانيا ـ فيما يختص بموضوع دراسات الكتاب العربي

توصي الحلقة بما يأتي :

١ ـ ان تقوم الامانة العامة لجامعة الدول العربية بالاتصال بالحكومات العربية لانشاء معهد « دراسات الكتاب العربي » ، يقوم على جمع المباحث الخاصة بالكتاب العربي ، من حيث نوعه وموضوعه والاحصاءات الخاصة به وخاماته واحتياجاته واسواقه وتصنيفه ، لتقديم المشورات اللازمة للهيئات الرسمية في كل ما يتعلق بذلك لترقية مستوى الكتاب العربي وفتح الابواب له وتمكينه من اداء رسالته في الثقافة العربية والحضارة الانسانية .

رسالة الناشر ...

بمناسبة انعقاد حلقة الكتاب العربي يحق لنا ان نتساءل : هل يلتزم الناشرون حقا رسالة صحيحة في نشر هذا الكتاب ؟

لقد كان من عادة المؤتمرات الادبية التي عقدت قبل الان في بعض العواصم العربية أن تتداول في وسائل نشر الكتاب وترويجه وتشجيعه ، وقد قدمت مقترحات كثيرة الى جميع الحكومات العربية، ظلت كلها حبرا على ورق ، فنرجو الا تظل توصيات هذه الحلقة حبرا على ورق .. والمهم هنا ، على كل حال ان نتحدث عن ناشري الكتاب، قبل التحدث عن الكتاب .

ونستطيع بكل اطمئنان ان نقرر ان كثيرا من الناشرين لا يؤدون رسالة النشر الحقيقة التي نحتاجها في هذه الفترة من نهضتنا العربية الجديدة .

اننا بحاجة الى ناشرين يعرفون للنشر رسالة غير رسالة التجارة الرخيصة التي هي الوسيلة والغاية جميعا . فان هناك من يجعلون الكتاب بضاعة لا تصلح في رأيهم الا اذا راجت الرواج الذي يحقق اكبر المغانم واضخم الارباح . وعلى مر الايام وتكرار التجربة تنقلب الرسالة التي اؤتمنوا عليها : فبدلا من ان ينشروا الكتاب القيم الذي يثقف ويعلم ويسهم في رفع مستوى المواطن ، وقد يحقق بعد ذلك ربحا ، او يرد نفقاته ، او يصاب ببعض خسارة ، بدلا من ذلك نراهم لا ينشرون الا الكتاب الذي يحقق الربح ، ولو لم يكن ذا قيمة ، ولو كان فيه ضرر للقارىء ، ولو كان يحمل بذور فساد او افساد . وان هؤلاء الناشرين يجهلون او يتجاهلون ان القارىء العربي اليوم ، بالنظر الى ثقافته البدائية وتعطشه لتعميق هذه الثقافة ، بحاجة الى توجيه حقيقي صالح . وحسبنا ان نراجع المؤلفات او المترجمات الكثيرة لنرى هذا الفيض من كتب الاثارة الجنسية (ولا نقول الثقافة الجنسية التي نحن بحاجة اليها) والموضوعات الاجتماعية الضحلة ، والتفاهات الادبية وسواها . ان عنصر التجارة الشريفة لا يتنافى مع هذه الرسالة ، غير ان التجارة تصبح في هذا الميدان غير شريفة ، اذا تخلى الناشر عن الايمان برسالته الحقيقية ، واتخذ التجارة غاية في ذاتها .

ونحن بحاجة الى ناشرين يرعون ما نسميه « الامانة » ، وهي في راينا رأسمال الناشر الاكبر . فكم هناك من يزوّر الكتب ، ويعيد نشر كتب مات مؤلفوها فتعرضت حقوق الورثة للضياع، وكم هناك من يقلد كتبا رائجة ، وكم هناك من يسرق المؤلفين اذ يتفق معهم على كمية معينة ، فيطبع اضعاف هذه الكمية بالخفية ، ويجعل المؤلفين فاقدي الثقة اجمالا بالناشرين ..

ونحن بحاجة الى ناشرين يرعون للكتاب حرمته ، فلا ينشرونه كيف تاتى لهم النشر ، ولاسيما الكتاب الذي يعد من التراث والذي ينبغي ان يوضع موضع التقديس ، فان هناك من ينشر هذه الكتاب بلا تحقيق دقيق ، او بلا تحقيق على الاطلاق ، فيأتي مليئا بالاغلاط والتشويهات ، بالرغم من ان هؤلاء الناشرين يملأون الدنيا دعاية بانهم عهدوا في تحقق هذه الكتب القديمة الى اخصائيين ، اذا حققنا في شانهم كانوا هم الناشرين انفسهم او اشخاصا اخرين نصف متعلمين او شبه متعلمين !

ونحن بحاجة الى ناشرين يرعون ما للحرف من قدسية واحترام ، فلا يعتبرون الكتاب سلعة تعامل كما تعامل اية سلعة تماما ، وانما ترتعش ايديهم وضمائرهم اذا فكروا في بيع «ستوكات» تجعل الكلمة والمؤلف والناشر جميعا في موضع الابتذال والاستخفاف.

ان هذه عيوب وآفات لا يجدينا شيئا ان نتجاهلها ، بل ينبغي ان نعترف بها ونذكر ، قبل ان نتطلق في مهاجمة المسؤولين هنا وهناك لما يضعون من عراقيل ويقيمون من عقبات في وجه الكتاب. يجب ان نحرص قبل كل شيء على ان نضع هذا الكتاب موضع الاحترام، وان نجنبه الاحتقار والابتذال ، وان نبعد من طريقه الادعياء والمرتزقين وان نحميه من المزورين والتجار ، وان نصرف عنه الطفيليين الذين يلجأون الى النشر لانهم لم يجدوا شيئا اخر يمتهنونه في هذه الحياة. غير ان هذا كله لا يعني ان ليس ثمة في الناشرين من يعتقد بان نشر الكتاب رسالة ، فهناك دور للنشر اخذت على عاتقها تقديم الكتاب القيم الذي يزيد المواطن العربي ثقافة ووعيا ويعمق مفهومه للحياة ويرفع حسه الفني والخلقي . واعتقادي ان هؤلاء يعون للنشر رسالة ، لانهم يتمتعون بمستوى ثقافي محترم يقيهم من ابتذال الكلمة وتحقير الحرف واتخاذه وسيلة اولى او اخيرة للاتجار . من اجل هذا ، كان من حقنا وواجبنا ان نطلب ، ان تشترط اتحادات الناشرين في البلاد العربية ان يكون الناشر متعلما ومثقفا ، فان اهميته في نشر نتاج الادباء لا تقل عن اهمية الادباء انفسهم .

وبعد فان دراسة وسائل تيسير تداول الكتاب العربي ، مطلوبة من الحكومات وشركات التوزيع ودور النشر ولكن على الناشرين قبل كل شيء ، ان يبدأوا بان يكونوا ناشرين واعين لمسؤولياتهم .

((الآداب))

٢ ـ بعقد ندوة لدراسة ما يتصل بالتنظيم الببليوغرافي في العالم العربي .

٣ ـ ان تعمل الامانة العامة لجامعة الدول العربية على تنسيق التعاون الببليوغرافي بين البلاد العربية في المجالات المختلفة وعقد الحلقات لدراسة الموضوعات المتعلقة بهذا التعاون .

٤ ـ ان تعمل حكومات الدول العربية على تدريب المكتبيين في ميدان العمل الببليوغرافي سواء بتنظيم الحلقات الدراسية او ايفاد المبعوث .

٥ ـ ان يعمل الناشرون العرب على استيفاء المعلومات الببليوغرافية في صفحة العنوان بكل كتاب منشور وفقا لما تقرره دراسات المختصين.

٦ ـ ان تعمل حكومات الدول العربية التي لم تصدر بعد القوانين المنظمة للايداع القانوني على اصدار هذه القوانين ، وتعيين مكتبة قومية بها تتلقى الكتب بموجب هذا القانون ، وتصدر نشرة دورية (سنوية على الاقل) بالمطبوعات التي أودعت بها .

٧ ـ ان تخصص الامانة العامة لجامعة الدول العربية جائزتين سنويتين لاحسن كتابين باللغة العربية في العلوم والاداب .

٨ ـ ان تخصص الامانة العامة لجامعة الدول العربية جائزة سنوية لاجمل كتاب عربي في الاخراج .

٩ ـ وجوب العناية بتوفير العدد الكافي من الفنيين والعمال المشتغلين بطباعة الكتب ، وانشاء مراكز للتدريب المهني للمشتغلين منهم بالفعل ، وذلك لسد الحاجات المتزايدة باستمرار ولتحسين الانتاج وخفض تكاليفه .

ثالثا ـ فيما يختص بالصلة بين الكتاب والقارىء

توصي الحلقة بما يأتي :

١ ـ ان يراعي المؤلفون والناشرون العرب المتطلبات الفكرية والحضارية لمختلف المستويات الثقافية في العالم العربي عند اختيار المواضيع التي ينشرونها .

٢ ـ ان تشجع وزارات التربية والتعليم والادارات والهيئات التعليمية في العالم العربي الطلاب في مختلف المراحل الدراسية بجميع الوسائل الفعالة على المطالعة وتأصيل عادة القراءة وتنمية الوعي القرائي ، وذلك بالمسابقات في المدارس والاذاعة والاستمرار في تزويد المكتبات المدرسية بكل ما يجد من الكتب ذات النفع للطلاب .

٣ ـ ان يشجع المربون في معاهد التعليم العربية طلابهم وتلاميذهم على التزود بالمعارف في مواد دراستهم من الكتب غير المقررة.

٤ ـ ان تتوسع الحكومات العربية في انشاء المكتبات العامة في المدن والقرى والاحياء والمكتبات المتنقلة وتيسر استعارة الكتب منها .

٥ ـ ان يعمل الاباء والامهات على ايجاد مكتبات منزلية .

٦ ـ ان يفرد اصحاب الصحف والمجلات زاوية دورية للتعريف بالكتب الجديدة ونقدها .

٧ ـ ان تعمل نقابات الصحافة واصحاب الصحف والمجلات وادارات الاذاعة والتلفزيون والسينما على ان يكون ما يستوفى من اجور الاعلان رمزيا ، تحقيقا للتعاون الضروري بين الكتاب ووسائل الاعلام .

٨ ـ ان تخصص البلاد العربية في جميع معارضها اجنحة للكتاب العربي وان يقيم الناشرون معارض دورية ومتنقلة له في العواصم العربية .

٩ ـ العمل على تنظيم العلاقة بين المؤلفين والناشرين والموزعين وتحديد نسب عادلة لتوزيع الارباح بين الاطراف الثلاثة في مختلف انواع الكتب ، مع مراعاة تخفيض اسعار البيع للجمهور الى الحد الممكن .

١٠ ـ الحرص على نشر طبعات شعبية زهيدة الثمن بجانب الطبعات الخاصة كلما امكن ذلك تيسيرا على جماهير القراء في اقتناء الكتب .

١١ ـ العمل على اقامة اسواق سنوية للكتاب العربي في العواصم والمدن العربية ، تتعاون على اقامتها الحكومات والناشرون ، وتتاح فيها الفرص لتوزيع الكتب المعروضة بأرخص الاثمان الممكنة .

١٢ ـ ان تأخذ الحكومات العربية بيد دور النشر والتوزيع وترصد الاعانات والمساعدات اللازمة للاستمرار في اداء واجبها بالنسبة للكتاب العربي .

رابعا ـ فيما يختص بالصعوبات الاقتصادية

توصي الحلقة بما يأتي :

١ ـ ان تقوم الامانة العامة لجامعة الدول العربية بدراسة انشاء صندوق لتيسير تداول الكتاب العربي ، تسهم في تكوين رصيده النقدي البلاد العربية المعنية لاصدار قسائم عربية على غرار كوبونات اليونسكو ، مع استخدامها كعملة خاصة لتجارة الكتاب العربي حين تحول قيود النقد دون حرية تداوله .

٢ ـ ان تقوم حكومات الدول العربية بتخفيض اجور البريد والنقل البري والبحري والجوي بالنسبة للكتاب العربي ، تيسيرا لتداوله وخفضا لتكاليفه .

٣ ـ الغاء الرسوم البلدية والجمركية المختلفة على الكتب المصدرة والمستوردة بين البلاد العربية ، وتسهيل اجراءات تصديرها واستيرادها .

٤ ـ مطالبة حكومات الدول المعنية باعفاء جميع انواع الورق المستخدم في طباعة الكتب من الرسوم الجمركية ، عملا على تخفيض اسعار الكتاب العربي الى اقصى حد ممكن .

٥ ـ المطالبة بتسهيل استيراد خامات الطباعة كالورق والحبر وآلات الطباعة وموادها وقطع غيارها ، وتدبير العملات اللازمة ، وذلك لاستمرار هذه الصناعة وتقدمها .

*

فضيحة ادبية

جاءتنا الكلمة التالية :

عندما نرى حلما سخيفا لا معنى له ، ونحاول استعادة تفاصيله ، نعجب كيف تراءت لنا تلك الاخيلة في صورة حقائق ، وكيف خدعتنا الاكذوبة : كتاب بلا ورق ، وصليب بلا مسامير .. وسير فوق الغيوم وتحت الارض ، وقفزات فوق حدود العقل ، وعظام من شمع ولهاث الخ..

أكاذيب نصدقها عندما يضع النوم فاصلا بيننا وبين التفكير المنطقي السليم ..

ولكن ...

حتى في عالم اليقظة ، هناك اشخاص يحلمون باستمرار ويطرحون العقل جانبا .. لنقرأ هذا الكلام :

« الرصيف فوق صدغيه علق ذو شعر أشقر ، يترامى الوهن في الزنود ، ببغاء كسلى تموت في الصباح وتحيا في المساء »

« صليب بلا مسامير ، وانتظار معلق من ثديه »

« مولود قدر له الف لسان كمثانة طفل لاتكف »

اذا فهمت هذا الكلام فانت انسان مثقف متأدب تعاني التأزم والقلق وتعيش التوتر والانفعال ، واذا كتبت هذا الكلام فانت شاعر خطير وأديب كبير .. والا فانت ، أنت الجاهل دون سواك ...

هكذا يفكر البعض وهذا مايفهمون ... ومن هؤلاء الشاعر المجدد والاديب الكبير انسي الحاج المسؤول عن الصفحة الادبية في جريدة « النهار » ..

ولننصت لهذه الحكاية : في جلسة ضحك صاخبة ، جلس بضعة أصدقاء يمرحون ، وعن لاحدهم ان ينظم قصيدة « حديثة مرسلة » فقال بضع عبارات بلا معنى ولا محتوى ، على غرار القصائد ، المتعددة التي تنشرها الصحف والمجلات ، وتجاوب معه احد الاصدقاء ، فاضاف بضع عبارات اخرى ، وهكذا .. بضع عبارات طنانة من هنا ، وبضع عبارات رنانة من هناك .. وولدت القصيدة ، بل قل الملحمة الشعرية المسماة « السقوط ... والبطولة الباقية » التي أرسلت « للنهار » بتوقيع اسم مستعار هو « سامي سعدون » ، وقد ارفقت القصيدة برسالة قصيرة جاء فيها ، ان كاتب هذه القصيدة شاب من دمشق استغل فرصة وجوده في بيروت فارسل قصيدة « للنهار » هي باكورة انتاجه الادبي ...

وانتهت جلسة المرح والضحك وانصرف الاصدقاء الى نشاطاتهم الجدية فكانت المفاجأة ، ففي يوم الاحد الواقع في ٢٧ ـ ٨ ـ ١٩٦١ وفي عدد النهار رقم ٧٨٨٧ نشرت القصيدة ـ النكتة ، في رأس صفحة النهار الادبية وبالبنط الاسود وهي مقسمة الى اربعة مقاطع كبيرة هي :

١ ـ الخوف

٢ ـ الشاعر

٣ ـ الموت

٤ ـ الختام

ليس عجيبا ان ينشر « انسي الحاج » هذه القصيدة ولكن العجيب ان قراء النهار « اعتادوا هذا النوع من الشعر او لعلهم عزفوا عن هذا النوع من القصائد فلم يتنبه احد منهم الى اللعبة والذين قراوا هذه الابيات في مقطع « الخوف » :

أنا خائف

الخوف وطواط حزين لالف صيف ، أفعى ذات أجراس تشتاق ربيع الوله الارضي ، صليب بلا مسامير ، وانتظار معلق من ثدييه .

أنا خائف ،

عيناه تتدلقان كأكواب حجارة صفراء ... ألخوف ! صليب مقلوب لاله بلا رأس وبلا خشب ، هم أحرقوا الصليب ، رماده صحراء ماء مالح، ألف بحار يهزون سيوفهم خائفين ..

ساقاه تعدوان في مستنقع الصمت الكالح ..

يا « أخيل » الجبان ، لاتهرب امام حدقتي السور ،انهم هناك .. الخوف ! شبح اسود ، برتقالة سقطت ولم تصل .. هات قناعك أيها الجنين : حياتك لزجة كطوفان قيء وحسرة .. ذبابة ! خنفسة ! سحقا لرأس عنكبوت في لون سماء آب ..

تشتاقين أيتها الطمأنينة الى اله لما يولد : كتفاه رصيفا ميناء مهجورة .. مدينة بلا قلوع .. وشاطىء لارمل فيه .. الخوف عدوك الذي تحبين ، قناديله غابات خرافه تنمو في صمتها ألف عجوز جدلت المستقبل في أمس . »

أقول ان الذين قراوا هذه الابيات لم يجدوا فرقا شاسعا بينها وبين ابيات انسي الحاج وغيره من ادعياء التجديد في عالم الشعر .. ولكن هل فهم انسي الحاج القصيدة قبل نشرها ؟ أم انه مدرك انها كقصائده تعتمد الغموض والابهام والعبارات المريضة « كمثانة طفل لاتكف و « يابشعا يتوقه عشرة خصيان »

وبعد

ليس عجيبا بعد هذا ان نحترم شعر بدر شاكر السياب ، واحمد عبد المعطي حجازي وصلاح عبد الصبور وغيرهم وان نضحك من شخص سمح لنفسه بنشر هذه الابيات في مقطع « الموت » :

ايها الاله ! لا اخاف منك ، انت الخوف يابحار الحقول الناشفه كصدوك المنخور بالسل .. ياذارع الشمس ، ياحاصد الشمس يابشعا يتوقه عشرة خصيان ..

لا أخاف منك .. حدق بجمرتيك ، عيناك ترتدان كالصفيح ، انت مخلوق جدارا وانت مخلوق أجتازك .. ياحافيا يركض أماما ، توقف ! عيناك لا تخفيان من يحدق اليهما .. ولكن من الذي يستطيع ؟ اقتلني.. أمش فوق عظام من شمع ولهاث ، لن اركض ورائي ، انت أو انا ،انت وانا او الحقيقة .. الحقيقة او نحن ، مولود بالف وجه ، مولود قذر له الف لسان كمثانه طفل لا تكف .

الاطفال ! قدر لايسقط ، صخرة تموز تعيش فوق ربيع يمطر شمسا وبرتقالا دون زهر .

قف انت ، انا أقف : ساحة الدم تعصر عناقيدها ، لن ترجع ؟ لن أرجع !

الحقيقة رلة تمترس صدري ... وصدري اسطورة امام خرافتك.. قف انت ... انا اقف ..

اقول هذا الكلام ، وانا في ثقة تامة مما عرضت لسبب بسيط هو اني انا شخصيا احد هؤلاء الذين ضمتهم جلسة المرح التي نظمت فيها هذه القصيدة !!

معن زيادة

الجمهورية العربية المتحدة

الاقليم الجنوبي

عروبة الاقباط ..

لمراسل الاداب محيي الدين محمد

***

منذ اعلنت القرارات الاشتراكية الاخيرة ، بدات الرجعية من قلب عفنها ترفع رؤوسا سامة ، وتطقطق بالسنة بذيئة وشتامة ، وفي ظنها ان مجرد اثارة الشكوك في هذه القرارات ، كفيل بان يهز النظام الاشتراكي ، ويخلخل الارض من تحته ، ويحقق لونا من البلبلة والظنون، يفسد الثقة بين الشعب وبين الحكومة ، مما يدفع بامال هذه الجماعة الى اقصى ابعادها .. بيد ان الرجعية في ظنها الخاطيء ، نسيت شيئا واحدا هاما ، هو ان الشعب مصلحته في تنفيذ هذه القرارات ، بل ان وجوده ليرتبط بها ويتحدد ويتشكل واذا بكلام الرجعية وطنطنتها ، نفخ في الهواء ..

وفي الواقع ، لايستطيع المراقب لهذه الاكاذيب ، الا ان يعتقد بان هذه الطغمة قد فقدت عقلها وادراكها وذكاءها ، فهكذا « تبشر » الدلائل الاولى لهذا الامر .. غير ان المشكلة اعمق واوسع من ذلك بكثير ، فهل تظن الرجعية حقا ان الشعب العربي لايرضى ان يكون مالكا للارض التي إشتغل عليها اجيرا منذ ستة الاف سنة ؟! هل تظن الرجعية ان الشعب العربي سوف يرفض ان تؤمم الشركات التي امتصت دم العمال ودم المستهلكين وابتنت الدور والقصور والعمائر ؟ هل يفكر انسان عاقل بهذا المنطق ؟

اذا كانت الرجعية في ندائها المحتضر هذا تريد وتطلب سند الشعب العربي في دعواها ، وتريد له ان يستجيب لندائها ، فلم اختارت ان تخاطبه بمنطق ينفره منها .؟ لم اختارت هذه الوسيلة المغلوطة ؟ فالشعب العربي يعرف ان هذه القرارات الاشتراكية هي خير ماقدم له في سلسلة الانتصارات التي حققتها الثورة العربية في مصر ، والشعب العربي يعرف ان مشاكل الفقر الرهيبة ، ومشاكل الجهل ، وكل المشاكل التي عانى منها طيلة تاريخه ، يدرسها النظام الحاضر ، ويضعها في اعتباره ، ويعمل من اجل ان يكون الجيل الحاضر والقادم ، اسعد بكثير من الاجيال الماضية .. الشعب العربي يعلم ذلك ، والرجعية تعلم عنه اكثر مما يعلم بقية الشعب .. فلماذا اذن تطلب منه ان يساندها في امور ليست مصلحته بينها ؟!.

لابد اذن ان الرجعية تتوجه الى سند اخر غير الشعب العربي ، سند اخر ضد النظام وضد الشعب العربي ، وضد القرارات الاشتراكية وضد هذه النهضة العظيمة التي تحققها البلاد .. سند اخر يدعو احد الكتاب الذين اعلنوا دوما عن صوتها ، ان يكتب في هذه الظروف القاسية التي نعيشها ، بان على « الدول الكبرى » ان « تتدخل » « لفرض » « اتحاد » « فيدرالي » ـ على ـ « الدول العربية » بما فيها « اسرائيل » .. « !!! » ، سند يدعو بعض رجال الدين الى اقامة الدعوى على ان الدين الاسلامي يتعارض مع هذه الدعوة الى الاشتراكية لان القرآن يذكر : « وجعلنا بعضهم فوق بعض درجات » ، سند يدعو البعض الاخر من رجال الدين الى استعداء السلطات نفسها على الكتاب الذين يطالبون بحق المراة في الحياة الجديدة ، التي تخلقها الظروف الجديدة للمجتمع المتطور ، سند يدعو بعضا من فئة تملك جريدة

« خضراء » الى التقليل من اهمية النتائج التي تترتب على هذه القرارات الخطيرة ، سند كان دائما وابدا مستعدا بخيله وخيالته ان يقيم منذ بداية الثورة ، حكومة يكون راضيا عنها ، لانها تحقق له مصالحه الاقتصادية والسياسية ، سند هو في الحقيقة جبهة خارجية متحفزة لاقل الوان الاعتراض الداخلي ، لتفرض منطقا اسمه التدخل لحماية الاقليات ..

كم من المرات هبطت ارض مصر قوات اجنبية باطشة بدعوى حماية الاقليات ؟

كم من المرات اثيرت النعرة الطائفية من الداخل بواسطة عناصر مأجورة ، لكي يتسنى السماح للاحتلال والاستغلال بان يثبت قواه في مصر ؟ كم من المرات اسيء استغلال طيبة هذا الشعب الوديع وحبه للامن ؟ كم من المرات حدث ذلك ؟اليس التاريخ كله مشحونا بهذه الحوادث ، التي بدات مرة بان مكاريا ضرب احد المالطيين ، وانتهت بدخول الجيش الانكليزي الى البلاد ؟ وهكذا تريد هذه النظرية القديمة ان تعود لتمارس وجهة نظرها الخاطئة مرة اخرى ، فيكتب احد مراسلي « الاسوشييتد برس » قائلا ان الفئة الوحيدة التي اصابتها الخسارة بعد القرارات الاشتراكية الاخيرة ، هم « الاقباط » « !! » وان هذه القرارات قد قصد بها اولا ، الى كنس المسيحيين من المناصب الهامة ، ومن جمع خيوط الادارة المالية والتجارية في البلاد ..

والعبارة بالنص ، تدعو الى اثارة طائفية كثيرا مااستخدمت ، ونجحت في الماضي ، لان الفرقة بين الطائفتين كانت مدعمة بالحصن الاستعماري ، والدعوة في شكلها الباطني ، هي : انقذوا المسيحية من براثن المسلمين !! ويتسنى بذلك ، للدول الاوروبية التي فقدت مصالحها التجارية والاقتصادية في البلاد العربية ، ان تجيش الجيوش وان تضرب لاستعادة ما فقدته ، وان يكون شعارها الازلي هو حماية الدين المسيحي.

كانت هذه الدعوة للتدخل ، ناجحة في الماضي ، لان قطب التجمع، او محور التركيز – وهو الان القومية العربية – كان ينقص وجهة النظر المناقضة ، للدعوة الى انقسام الامة .. غير ان اقباط اليوم ، ليسوا كاقباط الامس ، برغم ان كثيرا منهم لايؤمنون الا بالقومية المصرية ، ودليلهم الوحيد على ذلك هو « انتسابهم » الى التاريخ الفرعوني القديم، ثم بعض الدعاوي غير الثابتة التي تقول بان اقباط مصر هم الفراعنة الاصلاء ، الذين لم يشب جنسهم العريق اية شائبة ..

فمنذ الفتح الاسلامي ، وبعد « استراتيجية التنظيف » التي مارستها الادارة الاسلامية ، في ايامها الاولى – وتمارسها كل الجيوش الغازية – عاش الدين المسيحي جنب الاسلام ، بدون ان يحدث مايؤرق الاقلية المسيحية في اعتقادها ، واكبر دليل على ذلك هو وجود الاقباط انفسهم بعد ان دانت مصر جميعا للفتح الاسلامي .. انما كان الطبيعي لدولة متوسعة تريد لدينها الاستقرار والتوسع ان تصبغ مصر جميعا بهذا اللون الموحد الذي حملته معها من قلب الجزيرة ؟! اما كان طبيعيا ان يتحول الشعب المصري كله الى مسلمين ، اذا كان صحيحا مايزعمه البعض ان الاسلام يتربص بالمسيحيين الدوائر .؟

ان نظرة سريعة على التاريخ القديم والحديث ، يثبت وجهة النظر هذه ، في ان الاسلام دين سماحة .. وان الجيوش الاسلامية القديمة، كانت اقل الجيوش عصبية ضد الاعتقادات الاخرى الكتابية ... ويكفي مثالا لنا مسالة فسطين : لقد طرد شعب باكمله من دياره ، لان الاحتلال والاستعمار ، وبعض المسيحيين المتعصبين ، لايامنون لوجود المسلمين في الارض المسيحية المقدسة ...

بعض الاقباط لم يقتنعوا بعد بفكرة القومية العربية ، كما لم يقتنع بها بعض المسلمين كذلك ، والبعض القبطي يظن ان هناك ارتباطا بين الاسلام وبين القومية ، وعلى ذلك يربط هذا البعض بين القرارات التي تصدرها حكومة الثورة – المؤمنة بالقومية العربية – وبين كونهم « غير عرب » كما يزعمون ، ونتيجة ذلك ، هي ظنهم ان الدولة لاتعبر عنهم بهذه القرارات ، وانها تريد « غسلهم » من اعتقاداتهم الجنسية والدينية ..

والواقع ان الهراء الذي كتبه مراسل الاسوشييتد يلقى قبولا عند هذه الجماعة ، على اساس تعاطفي .. فالاقباط في الاقليم الجنوبي ليسوا الطبقة الرأسمالية فيه ، او على الاقل ليسوا طبقة ثرية .. اذ انهم مشتركون بعددهم القيل في الطبقات جميعا ، وان كانت غالبيتهم منضمنة في البورجوازية الصغيرة ، ويشكلون فيها نسبة « ١ : ٣٠ » تقريبا . فكيف اذن ، بمنطق مراسل الاسوشييتد ، تصيب هذه القرارات جزءا واحدا ، وتخطيء ثلاثين جزءا .؟ اليس ذلك تجنيا على الحقيقة؟

ولكنه التجني الذي يسبق الاعتداء ، ويمهد الجو له ، ويفرشه بالبغضاء والاحقاد ، كما تجنى بعض رجال الدين المسيحي في اوروبا منذ قرون ، على المسلمين ، واذاعوا الاقاويل بانهم يطبخون ابناء المسيحيين ويأكلونهم « !! »

ان وضع الاقليات شائك باستمرار على اساس انهم يخلقون باتحادهم القوي دائما ، وبعصبيتهم ، نعرة طائفية ، تساعدهم على العيش بين مجموعة واسعة من الناس المختلفين عنهم عقائديا . والواقع ان الشعب العربي« المسلم »لم ينظر جديا الى الاقباط على أنهم« اشخاص مختلفون» ووجهة النظر هذه ، مصدرها بعض الالسنة القوالة التي تلقي بالكلام لغاية احيانا ، ولغير غاية في كثير من الاحيان ..

قبل ثورة ٥٢ كانالشعب المصي منقسما الى قسمين – كما يتصور الاقباط ، ونجاريهم في تصورهم لمجرد التوضيح – : الغالبية العظمى، وهم خليط من الاجناس ، يغلبها الجنس العربي الغازي ، والاقليةالصغرى وهم الاقباط ، من الذين تعود نسبتهم الى الفراعنة ، ويتحصنون في الصعيد الاعلى ، ويبدون « مختلفين » في نظر المراقب العادي .. والواقع ان هذا الاختلاف ، ليس مصدره « الدين » المختلف ، ولكن اساسه هو حالة العزلة التي يعيشها الاقباط هناك ، فانهم مختلفون فعلا من حيث الاخلاق والتعصب ، والبداوة ، والشراسة ، وقد خلقت لهم حالة العزلة الخاصة ، قواعد للسلوك ، وفهما خاصا للطهارة ، والعلاقة بين الرجل والمرأة ، وادراكا حساسا للكلمة ، وللوعد .. وكل هذه القيم القبلية التي يتمم بها المجتمع البدائي اشواقه ... وينقض مسالة الاختلاف السطحية هذه ، ان بعضا من المسلمين ، ممن يعيشون في صعيد مصر الاعلى ، يبدون « مختلفين » ايضا ، لانهم يمارسون نفس حياة العزلة والانغلاق .. مختلفين من حيث السطح ، والشكل ..

ولا بد ان نلاحظ ايضا ، ان الاقباط الذين اعتزلوا في صعيد مصر الاعلى ، صمموا حين اراد بهم العيش الانتقال الى القاهرة ، على ان يسكنوا متجاورين ، ليسهل الدفاع عنهم ، ضد غزو « اسلامي » متوقع منذ ١٣٠٠ سنة .. « !! » ، فاختاروا ان يتحصنوا في منطقة شمالي القاهرة ، اسمها « شبرا » .. أي انهم « كأقلية » ، تفكر بنفس المنطق الذي تفكر به الاقليات في كافة بلدان العالم ، غير ان وضعهم في الاقليم الجنوبي ، يختلف عن وضع الاقليات في البلاد الاخرى اختلافا شديدا وعميقا .

الاقلية في تلك البلاد ، عبارة عن « اجناس » مختلفة ، اضطرتها ظروف العيش الى المهاجرة – مع الاحتفاظ بجنسياتهم – للعمل والتعيش وهم يختلفون اختلافا كليا عن ابناء البلد ، كاللبنانيين مثلا في الارجنتين

والبرازيل .. فانهم بالرغم من ان بعضهم قد تخلى عن جنسيته،يعودون الى الوطن بين الفينة والاخرى ، لانهم يشعرون بهذا الحنين الدافق الى اوطانهم ، مهما طالت مدة غيابهم ، وبعدت اسفارهم .. انهم فياوطانهم الجديدة : قومية مختلفة ، لسان مختلف ، عواطف مختلفة ، انتمـــاء مختلف .. ولا يشركهم بأهل البلد الا انهم يعيشون معهم ..

اما الاقباط فانهم ليسوا اقلية ، لانهم عرب ، برغم انهم يدينون بالمسيحية ، فالمنطقة ، حتى قبل ان يوحدها الفتح العربي ، كانت امتدادا واحدا ، محتاجا الى قطب يصوغه ، ويدفق فيه الدماء ، ويوحد سبله وغاياته .. وقد فعل الاسلام ، ماكان يمكن لاي عقيدة اخرى ان تفعله، اي ان تخلق قطبا ، من مشاركة غير واضحة .. وما يطلق عليه اســم « الغزو » العربي ، لم يكن « كنسا » لاعتقادات المسيحيين ، انما كـان توحيدا تاريخيا ، وليس عصبيا ،لوطن واحد ممتد ومتعارف ومتعاطف . توحيدا قوميا لدولة تمزقت اشلاء بفعل عوامل منتكسة ومعرية ، فالقبطي عربي لانه يتكلم العربية ، والدعوى القائلة بان الاقباط يتكلمون « اللغة» القبطية المحضة في بعض قرى الصعيد ، ثم الاستدلال بهذه الدعوى، على « قومية » مختلفة لهم ، ينقضها وجود بعض ابناء النوبة ابتداء مـن الصعيد الاعلى ، حتى بلدة « ادندان » شمالي السودان ، يتكلمـون « لغتين » نوبيتين مختلفتين ، ولا يربطها باللغة العربية شيء وبرغم ذلك، برغم ان « مانيفيستو » القومية العلمي ، يفقد هنا بعض علميته ، أي برغم ان للنوبيين « لغة » خاصة ، وموروثات خاصة ، وتقاليد خاصة، الا انهم مرتبطون بالقومية العربية ، من حيث « قوة الوجود » ، ولتوضيح هذه العبارة الغامضة ، إقول : ان اللغتين النوبيتين ، متأخرتان جـدا، من حيث انهما لغتان منطوقتان ، ولا يكتبان . ومن حيث انهما ناقصتان الى ابعد درجة . فالنوبي القاطن في بلدته ، يتمكن ــ تبعا لضآلة حياته من حيث العمق والمساحة ــ ان يتكلم لغته بدون عوائق . اما النوبي الذي ينزح الى القاهرة للتعيش ، فانه لايستطيع انيتمسك بلغته المحدودة ويستخدم كثيرا من الكلمات العربية التي تدخل الى لغته يوما بعد يوم، فيسهم في محوها ، من حيث اعتقاده انه يغنيها ــ فالحياة القاهرية هي حياة معقدة بالنسبة اليه ، وبالنسبة الىوسيلته للتفاهم .. وبعد سنة او نحوها ، تصبح « علاماته Signal Code مجرد ذكرى ، فى حين يبدأ التكلم باللغة العربية ، وتصبح وسيلته للتفاهم .. وهكـــذا يستطيع ان يعيش باقوى مما كان يعيش ،لانه اصبح « يعرف » أكثر ..

برغم هذا الاختلاف اللغوي ، يظل النوبي عربيا يشارك فيما يشترك فيه العرب من خصائص ، لم تبعده هذه العزلة القشرية عن كثير مـــن التعاطف الذي يبديه في مناسبات قومية لا حصر لها ..

القبطي عربي ، لانه مالك لهذه الارض العربية ، كما يملكها اخـوه المسلم . والقبطي عربي لانه متعاطف قلبيا مع حركة الولادة العربية ، وقد رأينا كثيرا من اخواننا الاقباط يشتركون في حرب فلسطين متطوعين اشداء ، وبلغت ببعضهم هذه الحماسة الى درجة انهم تطوعوا ضد فرنسا في حرب تحرير الجزائر ، وقدموا اسماءهم ضمن من تطوعوا لتحرير « بنزرت » ..

قبل ثورة ٥٢ ، كان هناك نوع من الانفصام القائم بين المسلمين « كجنس » خليط ، يغلبه الجنس العربي ، وبين الاقباط ، كحاملين للواء الفرعوني ،وكان الاساس الحقيقي للاختلاف هو الدين : هذه العلاقة العميقة الشخصية بين الانسان والخالق ، تتحول هنا الى نوع مـــن « ادراك الاختلاف » بتأثير الحصن الخارجي والداخلي منذ قرون :فالمسلم عربي ، لانه ينتمي « جنس » الغزاة من الجزيرة العربية . والقبطي مصري ، لانه سليل « الجنس » الفرعوني الذي انشأ حضارة ولغة وقومية خاصة .

وظل الوضع جامدا على ماهو عليه ، حتى بدأ البث الواعـــي المنظم لفكرة القومية العربية ، وبدأ الشعب في مصر يقتنع قليلا قليلا ، اما الاقباط فقد استحال عليهم ان يفكروا في منطق حديث ، طالما ان « الوضع » القديم قائم ..

« والوضع القديم » مسنود من الخارج بالافكار العتيقة البالية التي يكتبها مخرفون من امثال مراسل الاسوشييتد ، ومسنود بواسطة حملات التشهير التي تقوم بها الصهيونية العالمية في الجرائد الانكليزيةوالامريكية او مسنود من بعض الاقباط الجهلاء المتعصبين الذين يركبون رؤوسهم ، ظنا بان الدولة تخيط لهم الشراك .. و .. الى اخره ..

انالدين هو امر علاقة محض شخصية، يتوجه بها الوثنيوالزرادشتي وعابد النار الى الهه الخاص ، آملا وشاكيا .. انها علاقة خاصة ، لاتدخل فيها ابدا ، اعتبارات الوجود المشترك ، واعتبارات اللغة المشتركـة ، والاعتبارات العلمية الاخرى ..

ان هنا الان ، قطبا واحدا ، هو القومية ، يجمع حوله مئات الملايين من المسلمين والاقباط ، وكافة الديانات الاخرى وكافة الاعتقادات ..

واذا كنا قد انتصرنا كعرب في معارك كثيرة بيننا وبين الاستعمار الاوروبي ، الذي يتخفي احيانا في زي « قلب الاسد » الحامل سيفا كبيرا يشبه الصليب ، فاننا كعرب ايضا ، اقباطا ومسلمين ، نستطيع ان نحطم هذه الدعوى الجديدة التي ينشرها بيننا فئة قليلة من نافثي السموم ، ومن الجهلة ، ومن الحاقدين على هذه الثورة الاشتراكية العظيمة التي تريد ان تحقق الخير والعدالة والحرية ..

ان هناك بعضا من الذين « جمدتهم » التقليدية ، ينساقون الى مثل هذه الحملات ، بدافع « المشاركة في الاختلاف مع القائمين بهـــذه الحملات » ، وخطورة هذا الامر نابعة من انهم لايفهمون سبب هـــذه الحملات ، بل ويردونها الى انهم مجرد فئة مخلصة تعبر عما تـــراه رأيها الخاص .. .

والحقيقة ان الرجعية تلفظ الان انفاسها ، وقد كان ذلك الصوت اللاهث المرتعش ، هو آخر زفرة من رئتها اللئيمة الحاقدة ...

القاهرة — محيي الدين محمد

صدر حديثا :

رسائل مؤرقة

احدث ديـوان

للشاعر العربي الكبير

سليمان العيسى

منشورات دار الاداب